

العلامة الدكتور فريد الأنصاري (رحمه الله) والدروس التي لا تنسى (2)

لمحات ولفحات

أخرج الإمام البخاري قال: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ قَالَ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَمَّتُوا بَعِيرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا".

الحمد لله، والصلاة والسلام على رحمة الله للعالمين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن الدروسَ والعبرَ من قبضِ عالمنا الأنصاري-رحمه الله- لا تكاد تنتهي! وأبرزها ضرورة الاعتناء، بقداواتنا وساداتنا العلماء، وخصوصاً الأحياء؛ فإنما الناس بقادتهم وسادتهم- كما جاء في كلام ابن مسعود- رضي الله عنه:- " **المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة**"¹!

فإذا قبضَ الفقيهُ القدوة؛ قبضَ معه العلمَ والفضل! وعمَّ الظلام والجهل! ولله در القائل:

وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفه
على الناس حتى غيبتَه الصفائحُ

فأصبح في لحدٍ من الأرض ميّتا
وكانت به حيّاً تضيق الصّحاصحُ

وفي الحكيم: "**من جهل شيئاً عاداه**"، أو -في أحسن الأحوال- أهمله!. ومن ثمَّ وجب- سادتي- الاحتفال²، بعلم التراجم والرجال. فكم من علوم ضاعت بسبب الإهمال! سيما وأن علماءنا المغاربة، موسومون- في الجملة- بمهضم النفس، والبعد عن الأضواء، إلى حد كبير! ولا يقبلون من أحد أن يُترجم لهم، بله أن يُترجموا لأنفسهم بأنفسهم. ولم يشدَّ عن هذه العادة إلا نزر يسير، من أمثال: العلامة الوزير، محمد الحجوي الفاسي الثعالبي، (الذي ترجم لنفسه-على خجل- في الفكر السامي)، وإمام الأدب، لسان الدين بن الخطيب، وإمام التاريخ ابن خلدون... وغيرهم.

ولا ندري كيف ستعرف الأمة رجالها وعلماءها إذا أهملنا فن التراجم والسير! ولم يسعَّ القادرون منا-مثلا- إلى إمطة اللثام عن سير هؤلاء الأعلام، بالشكل التقليدي المعروف، أو بفتح مواقع إلكترونية، علمية، راقية؛ تواكب العصر، وتستشرف المستقبل، وتحترم الآخر..

ولقد أفضيتُ بهذا المهمِّ إلى بعض العُيُورِ الصُّبْرِ، من أحبائي، وقلت فيما قلت: إن هذا دوركم أنتم- معشر المثقفين- قبل أن يكون دورَ السادة العلماء النبلاء، الهارين من الأضواء. وظيفتكم أن تُنقّبوا عن علمائكم وأكابركم، في الحواضر، والبوادي، والسهول، والجبال، والداخل والخارج، وأن تُعرِّفوا بهم - كلُّ من موقعه وبحسبه- قبل الموت، وفوات الفوت!

وقديما قيل: "**من تحرق تحرك**"! وأما البكاء والرثاء، وسرادات العزاء؛ فهو جهد من لا جهد له- من أمثالنا-. وبأي وجه يأتري ينتفع العالم بمرثياتنا وبكائياتنا إذا عقفناه حيا، وضيعناه ميتا! ورحم الله الشاعر:

لا أفيئك بعد الموت تندُّبني
وفي حياتي ما زودتني زادي

¹ رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد.

² المبالاة والاهتمام

ما قيمة الدموع ياناس! إذا لم تضرب الحديد وهو ساخن - كما يقول المثل - ونقوم الآن الآن لخدمة تراث الأنصاري، والتنقيب عنه، وتنظيم أيام دراسية لقراءته، قراءة علمية، نقدية، أكاديمية..، تشارك فيها المجالس العلمية، والمنتديات الفكرية..، ويُدلي كلُّ برأيه - موافقا أو مخالفا-. فهل من مجيب؟! لعل ذلك قريب.. ولكن؛ هل سيكون ذلك على أيدينا- نحن العرب - أم على أيدي إخواننا الأعاجم مرة أخرى؟

لغة العلماء

وبعض الحَيَّرين- مع الأسف- لا يفقهون لغة العلماء، و أذواق العلماء، ويأخذون كلامهم على عواهنه، دون مِيزٍ وإدراك. وعلى سبيل المثال: فإن العالم إذا أطرق الرأس، وقال: أنا لست أهلا لكذا! ومن أنا؟! أنا طُويلب علم، أو طالب قرآن.. اذهبوا إلى غيري... أو ما أشبه ذلك من اعتذار؛ فإن ذلك لا يعني بالإشارة أو اللزوم أنه ليس عالما -على الحقيقة- كما يتصور الأغرار.. لا لا؛ بل هو أسلوب في الإيثار والاعتذار، لا أقل ولا أكثر. إذاً، ليس من الذوق والذكاء أن نردد وراءه ما يقول، ونؤمِّنَ عليه، ونعملَ بموجبه! بل نحمل ذلك كله أو جُلَّه على محمَل التواضع والورع.. مع حفظ المقامات والرتب، دون إفراط أو تفريط. ذلكم أن العالم- أيًّا كان - لا يملك إلا أن يتواضع ويتورع؛ لأنه يرى دائما من هو أعلم منه، وأصلح منه، وأولى بالمقال، شريطة التوسط والاعتدال، ومراعاة الحال والمآل. وما أجملَ المقولةَ التَّربويةَ الرائدة! للفاروق عمر رضي الله عنه: **" يابن أخي! قل ولا تحقر نفسك! "**³

وإذا كان بعض الشيوخ المشاركة- أعزَّهم الله-! قد توارثوا التعريف بأنفسهم - تحدثاً بالنعمة- كما تواتر ذلك في كلامهم، وسيرهم الذاتية، ومواقعهم الإلكترونية؛ فإن فقهاء المغرب- رفعهم الله- يغلبُ عليهم التواضع، والخمول، وهضم النفس، وخصوصا خريجي المساجد والمعاهد- كما لاحظ ذلك قديما الإمام ابن الحاج، العبدري الفاسي، في كتابه المدخل - والخير كله في الوسطية والاعتدال.

ولعلَّ الحلَّ الوسط هنا هو: أن يقوم مقامهم في هذا التعريف تلاميذهم وأشياعهم، أو أن يُستدرجوا إلى ذلك عن طريق الحوار والمدارسة، على غرار برامج "مراجعات" أو "علماء يتذكرون" أو "زيارة في بيت عالم"⁴.

وهل يُنتظر-على سبيل المثال- من الأستاذين الجليلين، الحيين، الورعين، سيدي عبد الله بن المدني، ومولاي مصطفى البوحياوي⁵، أو أشباههما⁶، أن ينشروا سيرهم، ويتكلموا عن أنفسهم؛ مهما كانت الذرائع والأسباب؟! فمن يأتري سيكشف اللثام عن تراجم هؤلاء الأعلام؟ من يقدمهم للناس؟ من هذا الفهم النَّهم الذي يستطيع أن يجرَّهم جرًّا إلى المحافل اللغوية، والمجالس العلمية، والمجامع الفقهية؛ حتى يغترف الناس من معينهم، ويشربوا من قلوبهم؟! و**"من دلَّ على خير، فله أجر فاعله"**⁷

وليعذرني أساتذتي وسادتي! إن غامرتُ فقلت: إن هذا التواضع المفرط-إذا وزَّنه بميزان الشريعة - قد فوّتَ على أمتنا كثيرا من النفع، وجلب لها كثيرا من الضُّرِّ! فبسببه حُرِّمنا -على سبيل المثال- من فرائد ودُررٍ (وربما في هذه الدرَّة اليتيمة)

³ صحيح البخاري.

⁴ برامج تلفزيونية معلومة في قناة السادسة والحوارا.

⁵ على سبيل المثال لا الحصر- وإلا فالقائمة طويلة، ومشرفة، والحمد لله، وكل عالم من علمائنا اختصه الله بشيء، قد لا تجده عند غيره. فهذا قوي في علوم الآلة، وذاك قوي في علوم الرواية، والآخر عالم بالله تعالى، وغيره فقيه بالشرع والواقع... وهكذا.. (والعلم الكامل المطلق لله وحده).

⁷ رواه مسلم.

علامة الدنيا، ومفخرة الزمان، سيدي محمد سالم الشنقيطي، الشهير بابن عدود. فلقد كان - رحمه الله - لا يأذن بتسجيل دروسه صوتياً - كما زوي عنه - بذريعة أن الحديث الشفوي لا يخلو من حشوٍ وركاكة وتكرار، وما أشبه ذلك من أعدار! - وهل البشر إلا رادٌ ومردود عليه؟ ومثله أساتذة لنا بالمغرب - نفعنا الله بهم - فنيت أعمارهم في العلم والتعليم، والتربية والتوجيه، وما سجّلوا، ولا طبعوا، ولا نشروا، ولا حاوروا، ولا أذنا بقليل ذلك أو كثيره! على حين، أن العوام، أو أشباه العوام، ينشرون صوتيات، ويطبعون ورقات، قد لا تساوي الحبر الذي كتبت به!

ولله در القاضي بن عبد الوهاب المالكي القائل:

متى يصل العطاشُ إلى ارتواءٍ إذا استقت البحار من الرّكايَا
ومن يثني الأصغر من مُرادٍ وقد جلس الأكابر في الزّوايَا

نداء ورجاء

يا إخوتي، أدركوا أدركوا - رحمكم الله - البقية الباقية، من الكواكب الدرّية! - سيما علماء البادية - فهم يُقبضون - بصمت - يوماً بعد يوم، فيقبضُ معهم العلم الثمين، الذي لا يوجد عند غيرهم!⁸ ولنعتبر بقول إمام أهل الشام، سيدنا خالد بن معدان الكلاعي - رحمه الله -: "إذا فتح أحدكم باب خير فليُسرع إليه، فإنه لا يدري متى يُغلقُ عنه"⁹.

ويخطر بالبال - على سبيل المثال - اسمُ فقيه مالكي جليل، يُدعى بالأستاذ التاويل - وهو من أشياخ الفقيه فريد - عرفه الأبعدون؛ فازدحموا على بابه ينهلون! وزهد فيه الأقربون؛ فانفضوا عنه وتركوه! - مع الأسف - وهكذا حال الناس دائماً، متى قُرب منهم الخير زهدوا فيه. ورحم الله الإمام ابن الجوزي الذي شكّا قديماً حجاب المعاصرة والمساكنة؛ فقال هذه الأبيات مُعرّضاً بأهل بغداد¹⁰!

عذيريَ من فتية بالعراق قلوبهم بالجفا قلب
يرون العجيب كلام الغريب وقول القريب فلا يعجب
ميازيبهم إن تندت إلى غير حيرانهم تقلب
وعذرهم عند توبيخهم مُغنيّة الحي لا تُطرب

فيأهل فاس القرويين،! "إنما أعظكم بواحدة": أن تعتنموا هذا الفقيه المكين، وأمثاله من العلماء الصالحين، قبل فوات الأوان! وأنتم أدري بأسمائهم، وألقابهم، ومواقعهم، وطبقاتهم، ومراتبهم.. اجثوا عنهم بالفتيل والقنديل.. اجثوا عنهم دارا دارا، وزنقة زنقة.. وسجلوا أصواتهم، ودوّنوا أفكارهم وأخبارهم، ولا تخشوا إزعاجا ولا إحراجا..، ولا أي شيء مما يتعلّل به الطيّبون الخيّرون؛ فإن سعادة العالم الحي في التعليم، والتفاعل مع الأجيال الصاعدة، الواعدة، وتوريثها الخير والفلاح، والعلم والحكمة .

⁸ ومن أراد المثال فليقر أكتاب "فتاوى تتحدى الإهمال في جبال الشمال" لابن عمومتنا وأستاذنا محمد الهبطي المواهي رحمه الله.

⁹ سير أعلام النبلاء للذهبي.

¹⁰ وفيات الأعيان لابن خلكان.

نعم، سعادة العالم الحق في أداء الرسالة، وإبراء الذمة، ولا سيما في مرحلة الشيخوخة والضعف. ورحم الله من قال: **"العلماء لا يتقاعدون ولا يستقيلون"** .

اغتنموا اغتنموا أستاذ الجليل، وقبلة الباحثين، العلامة الدكتور الشهيد البوشيخي - أمتع الله به - فمن صُلبه العلمي خرج فريد وأمثاله. ولولا الشهيد لما كان فريد! - كما هي سنة الله في العلم والتعليم - . وليس من النَّصْفَةِ ولا من الدُّوقِ أن نذكر التلميذ، وننسى الأستاذ!

فالله الله يأهل **"الفطرية"**¹¹! في هذا الكنز المخفي، والعالم الذكي، الذي انتفعنا به ولم نره! والله الله في شقيقه وصديقه الأستاذ العالم الفقيه المرابي، سيدي أحمد البوشيخي، الذي تخرجت على يده أجيال، وخرج من صلبه رجال، ولا يزال يعطي ويكابد - عافاه الله - رغم الآلام والأسقام.

وانتفعوا - نفعنا الله وإياكم - بالأستاذ الهراس، وبقية رجال فاس، (صاتها الله من كل باس!)¹²

وأنتم يا أبناءنا العطشى في مساجد الغرب، ومعاهد الغرب! **"انظروا ممن تأخذون دينكم"**¹³ حذارٍ أن تأخذوا دينكم - الذي هو عصمة أمركم - عن الأصاغر، والنكرات، والمجاهيل، والمجانين!! الذين خلا لهم الجوُّ في هذا الزمان؛ فباضوا وفرّخوا، وعتوا وأفسدوا!!!

خذوا دينكم عن الأنثبات الثقات، المشهود لهم بالعلم والعرفان، والوسطية والاعتدال، أمثال العلامة الأنصاري - رحمه الله - الذي زكاه القاضي والداني، والحاضر والباد! - وكان عضوا بارزا في المجلس العلمي الأعلى -، وأستاذا للأصول بالجامعة، وجنازته التاريخية أبلغ دليل! وصدق رسول الله: **"أنتم شهداء الله في الأرض"**¹⁴

وحسبنا هذه الشهادة العزيرة، للكاتب العام للمجلس العلمي الأعلى، معالي الأستاذ الدكتور، محمد يسّف، حيث صرّح للتلفزيون، في مقبرة الزيتون، بقوله:

"إن فريداً كان اسماً على مُسمّى،... فريداً، لا أعتقد أنه يسهل أن يُبنى مثله في هذه الأيام" انتهى.

والناس أكيّس من أن يحمّدوا رجلاً حتى يروا عنده آثاراً إحسانٍ

وأنتم يافقهاءنا! وبامحطّ آمالنا! خذوا الدرسَ القاسي، من جنازة السّجلماسي (فريد)!

¹¹ موقع الفطرية (فريد الأنصاري).

¹² **عبرة:**

روى الدكتور أحمد كمال أبو الجمد، عن الدكتور عبد العزيز كامل المصري - نائب رئيس الوزراء المعروف - أن أحد الأعاجم قال له: " لو كان عندنا مثل عالمٍ كم العظيم! - الإمام محمد أبو زهرة - لوكلنا به كاتباً بمشي معه، ويُدوّن ما يقول!" .

يقول مُقْبِلُهُ - عفا الله عنه -: وَمَنْ شَاهَدَ صَنِيعَ الْأَعَاجِمِ مَعَ عُلَمَائِهِمْ، وَأَتَمَّتْهُمْ، وَعُظْمَائِهِمْ - وخاصة الأتراك - خطر بباله قول الرسول الأكرم: " وَيَلِّ لِلْعَرَبِ، مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ!" .

¹³ مقولة مأثورة عن إمامنا مالك رحمه الله.

¹⁴ رواه البخاري ومسلم

إن اللقب، والمنصب، والأضواء، والشاشات، لم تكن ياسادتي، لتُشَلَّ حركة المواصلات، وتَحْمَلَ الألوْف على قطع المسافات، والوقوف ساعات وساعات، للمشاركة في التشييع والدعوات؛ ما لم يُسخرها فاطر الأرض والسموات..! ¹⁵ فهي إذاً إشارة إلهية، وشهادة ربانية، تدلُّ - إن شاء الله - على قبول الله لعبده الأنصاري - حياً وميتاً - وصدق أخونا الفقيه الدكتور عبد الله الهلالي: "لقد كانت حياة فريد دعوة، ووفائه دعوة!!"

ألا ليت المخدوعين - مثلي - يَسْكُبُون العِبْرَةَ! ويأخذون العِبْرَةَ من هذا المصير، الذي آل إليه الأخ الأثير! فتالله إنَّ سَكْرَةَ الحياة قد أنستنا السَكْرَةَ ¹⁶! وفعلت فعلها في قدوات الأمة! ومنارات الملة!

ياعلماء الدين ياملح البلد ما يصلح الملح اذا الملح فسد

وأزعم؛ بل أقطع - إن شاء الله - أن من أسباب عزة الأنصاري - رحمه الله - الزهدُ والقناعةُ، وتوقُّع الموتِ في كلِّ ساعة! وحسي من الأدلة والشهود، قول سيد الوجود: "زهدي في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس" ¹⁷

أجل! لقد كان هاجسُ الغروبِ يطاردُ أحنانا في حله وتراحاله، ونطقه وصمته! - كما ذكر أهل الوجدان والعرفان - وكأنه يُطلُّ على عالم البرزخ من علٍّ؛ مردداً بلا مللٍ: "ياأيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه!"! الانشقاق. وقوله عليه الصلاة والسلام: "كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابرُ سبيل!"

فما ظنكم بامرئٍ ودَّع أهله، وحمل حقيبته، وجلس في قاعة الانتظار، ينتظر القطار؟! - قطار الأجل -

وأبي رعونة تبقى - ياسادة - فيمن قطع الإياس من الناس، وتعلق برب الناس، ملك الناس، إله الناس؟!!

ولا أذيع سرّاً من حياة أحنينا العلامة الأنصاري، إن قلتُ بأنه لقي الله تعالى متوسّطَ الحال، قليل المال، نظيف اليد، بعيداً عن كل مظاهر البذخ والترّف! وهو الأستاذ الجامعي، والموظف الرسمي! - الرئيس السابق للمجلس العلمي - وما سمعناه يوماً يتحدث عن دُور، أو قصور، أو فنادق، أو مطاعم، أو مكافأة، أو هبة، أو ربح، أو خسارة...؛ بل كان يُشّي الحال، وَيَقْبَلُ المَوْجُودَ، وكأنه ينطق بقول ابن الرومي:

أنا من خفّ واستدقّ فما يُثقلُ أرضاً ولا يسدُّ فضاءً

وما العيب ياسادة، أن يكون العالمُ ذا بسطة في المال، أو الجاه..؛ بل إنَّ من شرط العالم المفتي: "الكفاية، وإلا مضغه النَّاس" ¹⁸؛ ولكن العيب كل العيب في أن ينال العالم هذه الكفاية، بإشراف ومسألة، وخنوع وذلة، واحتيال وشبهة..!! العيب أن تكون الدنيا أكبر همهم، ومبلغ علمهم، ومنتهم أملهم.. العيب أن يخوض مع الخائضين، ويُخربق ¹⁹ مع المُخربقين، حتى ياتيه اليقين.

وكان الشيخ - رحمه الله - شديد التحرُّز من أموال الصدقات، والكفارات، والأوقاف..؛ داعياً العاملين عليها إلى مراقبة الله تعالى في كل ذلك. ولا ندري كم في أمة الإسلام من نظير لهذا الزاهد الكبير!

¹⁵ قبيل الصلاة على الشيخ فريد، اتصلت هاتفياً بعالمنا وشيخنا، سيدي عبد الله المدني؛ فأخبرني بأن المشيعين لا يحصون كثرة.!!

¹⁶ إشارة إلى قوله تعالى "وجاءت سكرة الموت بالحق" سورة ق.

¹⁷ رواه ابن ماجه بسند حسن

¹⁸ مقولة للإمام أحمد، ذكرها ابن القيم في: إعلام الموقعين "ومن لا دنيا له لا دين له"، كما قال شكيب أرسلان.

¹⁹ قال صاحب اللسان وخزنت الثوب أي شقته وخزنت عمه أفسده

بصيرة

ما عالمٌ-سادتي- ليست عنده عفةٌ ورفعة، ودمعةٌ ولوعةٌ؟ ما عالمٌ يشتري الفاني بالباقي، والعذاب بالمغفرة؟ ما عالمٌ ليس له طعم ولا ذوق ولا رائحة؟! ما عالمٌ يرحل إلى ربه صِفْرَ اليدين، أقطع أبتَرَ، لا ذِكرٌ ولا أثرٌ!! ما أشد حسرة هذا العالم يوم القيامة! "حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أحسن الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة، فباعها ببعرة..."²⁰.

نداء ورجاء

يا إخوتي الأوفياء! تعالوا إلى كلمة سواء! أن نعيد قراءة "أعمال" الشيخ فريد- رحمه الله- بنفَسٍ جديد، ونظر حديد، فوالله إنها- في الجملة- مباركة طيبة، مُثمرة نافعة!²¹

إنها- كما يقول النقاد- قطعة أدبية نادرة، تؤنس القلب، وتغذي الروح..، ناهيك عن فقهها الغزير، ونظمها البديع! وكأنك تقرأ -حقيقة- للعلماء المتقدمين، والأدباء المتفقيين، من أمثال ابن الجوزي، والقاضي ابن العربي، والقرافي المالكي، وعلي الطنطاوي، والنَّدوي، والغزالي..وقلّ من العلماء المعاصرين من جمع الله له هذه المواهب، وحباه بهذه الفتوح، وصدق الله: "ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده" فاطر.

هَمْسَة:

فيامن حجبت الدعاية السُّوآى حقيقة فريد عن عينه؛ فعاداه مخدوعا بالقليل والقال!. اخرج - هداك الله- من هذه العتمة! أبصر النور، واكشف السُّتور! اكشف السُّتور بيدك أنت أنت؛ تر الحقائق!

إقرأ بنفسك كتب الأستاذ، ومقالات الأستاذ، واسمع دروسه، وتأمل سيرته ومسيرته، وزر موقعه- الفطرية-، وعندئذ سيغمرك الندم، ويعصرك الأسى! وتقول معي- في انكسار- : واضيعة العمر! الذي استهلكته قبل أن أعرف هذا العبد الصالح، والعالم الناصح! " فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد" غافر.

وبعض الأغرار - مع الأسف- لم يعرفوا هذا الأنصاريّ العبقريّ، إلا بمصنّفه النقديّ الزُّزال "الأخطاء الستة..." الذي قال فيه ما قال- شاهدا على العصر- ومضى إلى أحكم الحاكمين، وأسرع الحاسبين، وأرحم الراحمين!. أما النَّقائسُ الأخرى؛ فهم منها عَمُون!

فتعلّموا "فقه الاختلاف" يا إخوتي! تتسع صدوركم! فإنه ما شرطُ العالم أن يكون موافقا للناس؛ بل شرطه-فقط- أن يتحرى الحقّ، و يُحرّر القصد، ويقبل النَّقد. "ولا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها" سورة الطلاق.

ومن شهد الجِنَازة العظيمة؛ أدرك أن الأنصاري - رحمه الله- نال محبة المنتقد، والمنتقد، والموافق، والمفارق، والحاكم والمحكوم؛ إلا نَزراً يسيراً من الشباب، ليسوا في العير ولا في النفير من قصة الكتاب²²! ويتوب الله على من تاب! وعلى مثل هؤلاء- ربما- يصدق المثل السائر: "أهل الميت صبروا، والمعزّون كفروا"!

²⁰ كما قال حافظ المغرب، الإمام ابن عبد البر- رحمه الله- في جامع بيان العلم

²¹ ولا ننس - بكل حال- المقولة المنهجية الرائدة، لإمامنا مالك رحمه الله: "كل يؤخذ من كلامه ويترك، إلا صاحب هذا القبر" وما كان يردده الفقيه فريد نفسه أيضا في غير مناسبة: "خذ ما صفا. دع ما كدر!"

²² كتاب "الأخطاء الستة".

عبرة وعبرة:

من الذكريات التي لا تُنسى: أني صادفت الأخ الأنصاري -رحمه الله- في ندوة الخطباء، بالدار البيضاء؛ فألفيته مهموماً- على غير عادته- فسألته عن حاله؛ فقال: الحمد لله، الحمد لله..، نالي يأخي، بسبب كتاب "الأخطاء الستة..." أذى كثير، وما أنصفتني صغير ولا كبير! فسليته بكلمات، وسكنته بدعوات، ثم قلت مداعباً: لقد حرّكت يا شيخ، الماء الرّاكد...!! أو كسرت ما يُسمّى بالفرنسية "les tabouts" "الطابؤات"، (المحظورات) وغمرت حقيقة...!! (أو كلاماً هذا معناه)؛ فقال: إي والله! وهذا ما كان. فعقبتُ قائلاً: وهل استخرت الله يا شيخ، فيما كتبت؟ قال: فعلت. ثم سألته ثانية: وهل استشرت الحكماء فيما أقدمت عليه؟ قال: نعم. قلت: إذاً، ففوض الأمر إلى مولاك!.

ثم ألح عليّ - يرحمه الله- في الزيارة، (رفقة شيخنا الشريف التجكاني)، وبالغ في الترحيب والتحفّي؛ فوعده خيراً، وودّعه وأنا مشفق على حاله؛ مردداً: قدر الله وما شاء فعل! لا حول ولا قوة إلا بالله!

ولما عدتُ إلى فرنسا؛ هتفتُ به- بمعية الأخ الطبيب الدكتور النبخت - سلمه الله- وعهدنا إليه أن يطوي كل الملفات الساخنة، والحساسة، وينسى "الأخطاء الستة..." والسبعة...، وما تناسل منها وتفرغ! ويتفرغ للعلاج؛ فوعدنا بذلك ووفى- رحمه الله-!

وقال- يغفر الله لنا وله- في كلامٍ منشور- يقطرُ ألماً وحسرةً -: "هذا الكتاب له قصة أخرى...! قصة غير ما تصور الناس من ظواهر، ربما كان بعضها صحيحاً...! والزمان كفيل بكشف الحجب!"

إنه كتاب أجرى الله مقاديره على لساني، وبخط بناي؛ فنالي بسبب ذلك من البلاء والابتلاء ما الله به عليم! أما حالي آنثذ ونيقي وقصدي، وخالص وجهتي، فذلك أمر بيني وبين ربي! ... ولا أقول - بعد هذا - إلا كما قال سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس! يا أرحم الراحمين!.. أنت أرحم الراحمين، وأنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلمني؟ إلى عدو يتجهمني؛ أم إلى قريب ملكته أمري! إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي! وإن عافيتك أوسع لي! أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة؛ أن ينزل بي غضبك، أو يحل بي سخطك! ولك العتبى حتى ترضى.. ولا حول ولا قوة إلا بك!)).²³

بيان وختام

يا إخوتي الأعزاء، يامن استكثرتم علينا كلمات رثاء في حق الفقيد فريد! اعلّموا -سلمكم الله- أن رثاءنا للأستاذ، وحبنا له، وتأسينا به، ووفاءنا له، لا يعني بوجه من الوجوه، أنه كامل معصوم - ما هم ولا لم- أو أننا نعتقد فيه- والعياذ بالله- ما لا يحل اعتقاده! أو أننا نتعصب له، ونتبنى كل اجتهاداته وآرائه- بلا تأمل ولا تبصر- أو نراه بديلاً عن غيره، لا نتخطاه ولا نتعداه! كلا وحاشا! ولكننا نعتقد -والعلم عند الله- أن الأستاذ الدكتور -بكل حال- هو واحد من علماء الملة، و"علّم من أعلام الأمة" - كما وصفه العلامة الدكتور مصطفى بنحمزة- وغيره من الكبار، وأن الله تعالى سيبارك في علمه وسعيه؛ حتى يبلغ الآفاق، ويدخل على الناس من كل باب وطاق! رغم عمره القصير، وزمنه اليسير! و "ربّ عمر قليلة

²³ ضعف بعض المحدثين هذه الرواية، بيد أن رائحة النبوة تقطر منها (كما قال أحد العلماء المعاصرين).

آمأءه؁ كئثيرة أمدأءه" و" من بورك له في عمره؛ أدرك في يسيرٍ من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة؁ ولا تلحقه الإشارة"²⁴ و"العبرة بعرض العمر لا بطوله"- كما كان يردد الفقيه فريد- نفسه؁ رحمه الله-.

فإلى رحمة الله وعفوه وكرمه ياأبا أيوب! إن شاء الله.

وداعا. وداعا. يافارس القرآن؁ إلى أن يجمعنا الله - بمحض فضله- في مستقر رحمته؁ ودار كرامته؁ وداعا
وداعا.....وسلام الله عليك حيا وميتا. السلام السلام.....

²⁴ كما قال الحكيم ابن عطاء الله السكندري- رحمه الله-